الإمام الأعظم
أبو حنيفة النعمان

- اعتمد فقهه على الرأى والقياس بعد الكتاب والسُّنة

- رفض القضاء فطافوا به فى الأسواق وضربوه بالسياط.!

- مات بعد أيام من دخوله السجن!

الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان

ولد أبو حنيفة سنة ٨٠ هـ من أسرة تنتمى إلى أصل فارسى وعاش سبعين عاماً. . أغلبها فى العصر الأموى والباقى فى العصر العباسى. وشاهد صوراً مختلفة من الحياة فى كلا العصرين. . وسمع عن الفتن التى حدثت كما أنه كان عصر يمتزج بالفرق الكلامية، وفيه الترف وفيه الزهد. . وفى نفس الوقت ازدهرت عظمة الفتوحات الإسلامية فى كل مكان سواء فى آسيا حتى وصل المسلمون إلى أسوار الصين ، أو فى الشمال الأفريقى الذى خضع بالكامل للحكم الأموى، ثم دخلوا أسبانيا وجنوب فرنسا.

وعلى جانب آخر وجد فى هذا العصر الكثيرون من الذين ينافقون السلطان حتى ينالوا نصيباً من الدنيا وما أكثر الذين عاشوا فى هذا العصر وعانوا من عبث العابثين والمنافقين . . وما أكثر الذين آثروا العزلة والابتعاد عن أضواء السياسة هرباً وخوفاً من أن تصيبهم الفتن، وتعكر صفو أيام حياتهم.

فى هذا العصر عاش الإمام أبو حنيفة إنسان بالغ الذكاء. . قوى الحجة . . جميل الصوت . . طويل القامة. . أسمر. . عطوفاً على الفقراء والمساكين شديد الحلم. . حباه اللّه بالثراء فقد كان يتاجر فى الأقمشة الحريرية كأبيه.

وتعلم من مهنته تلك أمور التجارة ، وهذا ما نفعه عندما تعمق فى دراسة الفقه وتحدث عن المعاملات فى الإسلام فكانت له اجتهاداته المميزة.

ولفرط ذكائه استوعب الدروس التى كان يتلقاها من شيوخ العلم فى البصرة والكوفة. . وقد أحب علم الكلام واستوعبه ثم وجد أن طريقه هو الفقه. . فتفقه فى الدين. . وجلس إلى كبار علماء عصره، ونفعته ملكته وذكاؤه فامتص علوم العصر، حتى أصبح له وجهة نظر فى مختلف الأمور من خلال تعمقه فى دراسة كتاب الله وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام. . وكان فقهه يعتمد على الرأى.

ومما يروى عن أمانته أن امرأة جاءت لتبيع له ثوباً طلبت فيه مائة درهم.

فقال لها الإمام : هو خير من ذلك . . فزادات مائة . . ثم زادت حتى طلبت أربعمائة.

فقال لها : هو خير من ذلك! فقالت: اتهزأ بى؟ فقال لها : هاتى رجلا يُقيمه فجاءت برجل فقيمه بخمسمائة!

بل بلغ من أمانته أنه طلب رجلاً لمشاركته فى تجارته، حتى يتفرغ للعلم . . وذات يوم أخبر شريكه أن هناك ثوباً فيه بعض العيوب . . فإذا باعه فعليه أن ينبه المشترى إلى هذا العيب، وباع الرجل الثوب دون أن يخبر المشترى بما فيه من عيوب فما كان من أبى حنيفة إلا أن أنفصل عن شريكه وتصدق بثمن الثوب عندما لم يتمكن من العثور على صاحبه . . شخصية بالغة الأمانة. . وكما تحدث الناس عن سمو أخلاقه وفضائله تحدثوا عن صبره على الذين يكيدون له . . حتى أن أحدهم شتمه فى المسجد فخرج والرجل خلفه يكيل له السباب حتى وصل إلى باب منزله وقال له الإمام:

– هذه دارى فأتم كلامك حتى لا يبقى عندك شىء أو يفوتك سباب فأنا أريد أن أدخل دارى.

وقد وصفه تلميذه أبو يوسف للرشيد بقوله:

«كان والله أبو حنيفة شديد الذب عن محارم اللّه، مجانبا أهل الدنيا. . فى دنياه طويل الصمت. . دائم الفكر. . ولم يكن مهذارا ولا ثرثارا. . إن سئل عن مسألة كان عنده علم بها أجاب عما سمع بما ثبت عنده . . ما علمت يا أمير المؤمنين رجلاً أكثر منه اشتغالاً بدينه عن نفسه وعن الناس . . لا يذكر أحد إلا بخير» . .

فقال الرشيد : هذه أخلاق الصالحين. .

وقال عنه الإمام الشافعى:

– ما قامت الناس عن رجل أعقل من أبى حنيفة.

وكان الإمام يقرأ القرآن الكريم كثيراً وكثيراً أيضاً ما صلى الفجر بوضوء العشاء.

ومع كل هذه الفضائل التى كان يتميز بها الإمام، فقد كان له خصوم.. وخصومه كانوا من بعض الفقهاء الذين أوغر صدورهم التفاف الناس حوله دونهم كما خاصمه الحكام لأنه كان يقول الحق، حتى لو أغضبهم وكان حبه لآل البيت دافعاً لأن يغضب عليه خلفاء بنى أمية وبنى العباس الذين عاصرهم.

وكان منهجه فى الفقه بعد الكتاب والسنة القياس وقد وضح ذلك فى وصيته لنوح بن مريم عندما ولى نوح القضاء فى (مرو) التى قال له فيها:

(أن أبواب القضاء لا يدركها إلا العالم النحرير.. فإذا أشكل عليك شىء من ذلك فارحل إلى الكتاب والسنة والإجماع، فإن وجدت ذلك ظاهرا فاعمل به، فإن لم تجده ظاهرا فرده إلى النظائر، واستشهد عليه بالأصول، ثم أعمل بما كان إلى الأصول أقرب وبها أشبه).

كان القياس عند أبى حنيفة من أهم مصادر فقهه.. والقرآن الكريم فيه ذلك مثل قوله تعالى:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾

[النساء: ٨٣]

وأعلى أبواب الاستنباط هو القياس.

ويروى أحمد أمين فى كتابه (ضحى الإسلام).

إن من الأمور الظاهرة فى فقه أبى حنيفة الحيل الشرعية، وقد أصبحت فيما بعد باباً واسعاً من أبواب الفقه فى مذهب أبى حنيفة وغيره من المذاهب.. وإن كانت فى مذهب أبى حنيفة أظهر.

ويقول: وقد رويت عن أبى حنيفة مسائل فى هذا الباب، أكثرها من باب الإيمان والطلاق، ومنها يظهر أن سكان العراق تفننوا فى الأيمان والطلاق تفننا عجيباً، وكان يستفتون الأئمة فى هذه الأيمان العجيبة التى يوقعونها.

فيحلف (الأعمش) بطلاق امرأته إن اخبرته بفناء الدقيق أو كتبت به أو راسلته أو ذكرت لأحد ليذكره له، أو أومأت فى ذلك فتسأل امرأة أبا حنيفة ، فيحتال لمخرج لهذا فيقول لها :

- إذا انتهى الدقيق فشدى جراب الدقيق على إزاره أو ثوبه وهو نائم، فإذا أصبح أو قام من الليل علم خلاء الجراب وفناء الدقيق.

ويحلف آخر ليقربن امرأته نهاراً فى رمضان ، فيفتيه أبو حنيفة أن يسافر بها فيقربها نهاراً فى رمضان.

ويحلف رجل وقد رأى امرأته على السلم فيقول: أنت طالق ثلاثاً إن صعدت وطالق ثلاثاً إن نزلت؟

فيفتيه أبو حنيفة أن تقف المرأة على السلم ولا تصعد ولا تنزل ويحتال جماعة يحملون السلم بالمرأة فيضعونها على الأرض!!

ويسأله رجل فيقول: لى ولد ليس لى غيره فإن زوجته طلق، وإن سريته أعتق، وقد عجزت عن هذا فهل من حيلة؟

فقال أبو حنيفة: اشتر الجارية التى يرضاها هو - لنفسك - ثم زوجها منه فإن طلق رجعت مملوكتك إليك.. وإن أعتق أعتق ما لا يملك.. إلى أمثال ذلك.

فنرى من مجموع هذا أن الحيل التى أفتى بها أبو حنيفة ليست من نوع التحايل على إبطال الحق أو أكل الأموال بالباطل ونحو ذلك إنما هو استخراج فقهى للخروج من مأزق مع عدم التعدى على أحد فى ماله ونفسه.

ويقول أحمد أمين:

مما لا شك فيه إن أبا حنيفة خرج على الناس بمذهب جديد .. فيه حرية للعقل بكثرة استعمال الرأى والقياس، وبما استتبع ذلك من كثرة الفروع ورجوعها إلى أصول، وبمقدرة فائقة فى الاستنباط وبشجاعة فى مواجهة المسائل حتى الفرضية منها والإفتاء فيها ، ويتعرف وجوه الحيل فى المسائل، فى الحدود التى ذكرناها، وبتقريب الفقه إلى الأذهان حتى قال الجاحظ:

(وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً ، وهو لا يعد فقيهاً ولا يجعل قاضياً، فما هو إلا أن ينظر فى كتب أبى حنيفة وأشباه أبى حنيفة، ويحفظ كتب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين، حتى تمر بباله فتظن أنه من بعض العمال وبالحرى لا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكما على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان).

وانقسم حول فقهه كثيرون بين مؤيد ومعارض، ومهما قيل فإن هذه الحركة القوية ، وهذا النزاع الشديد بين أصحاب الرأى والحديث، رقى الفقه فى هذا العصر رقياً عظيماً ، وفتق الأذهان واستخرج منها أحكاماً ونظريات هى خير نتاج العصور الإسلامية على حد تعبير أحمد أمين.

لقدأصبح أبو حنيفة أعظم الفقهاء حتى أطلق عليه تلاميذه . . الإمام الأعظم.

وتمضى الأيام . . ويحاول الخليفة أبو جعفر المنصور أن يوليه القضاء، ولكن أبا حنيفة رفض منصب القضاء. .

أو كما يقول المستشار عبدالحليم الجندى فى كتابه (أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام) وهو يتحدث عن عرض الخليفة القضاء على أبى حنيفة ورفض أبى حنيفة، وما تلا ذلك من أحداث.

«وأصر إمام المسلمين وأصر أمير المؤمنين وحلف أبو جعفر ليفعلن فحلف أبو حنيفة ألا يفعل، وقال: إنى لا أصلح للقضاء قال الربيع بن يونس الحاجب: ألا ترى أمير المؤمنين يحلف؟

قال أبو حنيفة : أمير المؤمنين أقدر على كفارة إيمانه منى.

فأمر به أبو جعفر إلى الحبس فى الوقت ثم داعبه.

قال: أترغب عما نحن فيه؟

قال : أصلح الله أمير المؤمنين لا أصلح للقضاء.

قال الخليفة : كذبت .

فانطلق أبو حنيفة يقول:

- لقد حكم على أمير المؤمنين أنى لا أصلح للقضاء لأنه ينسبنى إلى الكذب.. فإن كنت كاذباً فلا أصلح .. وإن كنت صادقاً فقد أخبرت أمير المؤمنين أنى لا أصلح.

وطفق أمير المؤمنين ينازله فى الأمر وهو يقول :

- اتق الله ولا ترع أمانتك إلا من يخاف الله، والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتنى أن تغرقنى فى الفرات لاخترت أن أغرق ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك فلا أصلح لذلك.. وكيف يحل أن تولى قاضيا على أمانتك وهو كذاب!.

قيل وداروا به فى الأسواق أياماً كثيرة على أن يقبل القضاء فأبى وردوه إلى السجن.

وقيل إن الوزراء نصحوا أبا جعفر بإخراجه من السجن وجعله فى منزله ومنعه من الفتوى للناس والجلوس لهم والخروج من المنزل فكانت حالته إلى أن مات بعد قليل من الزمان، ويقال بعد أيام معدودات.

وقالوا: إنه ضرب مائة سوط أو مائة وعشرة وثلاثين سوطاً حتى سال الدم على عقبيه!!

فقال : عبدالرحمن بن على عم الخليفة للخليفة:

- سللت على نفسك مائة ألف سيف.. هذا فقيه أهل العراق فقيه أهل الشرق فأمر له أبو جعفر بثلاثين ألف درهم فكان بكل سوط ألف درهم ، فلما وضعت بين يديه رفضها.

فقيل له : لو تصدقت بها ..

قال : أيوجد عندهم الحلال.

هكذا حبس الرجل الذى ظلت الحرية نصف قرن اسما هو مسماه، والذى عاش سبعين عاماً يصنع الحرية بيديه صنعاً، ويخلقها فى تلاميذه وفى تعاليمه. حبس الجسم من ذلك القلب الذى لم يحبس نوره أحد. . ولن يحبسه قيد أو حقد.

أن محابس هذا العالم وقيوده للناس والولاة ولكنها ليست للعباقرة.

ويحلل المستشار عبدالحليم الجندى محنة الإمام الأعظم بقوله:

لكن ما هال أبا جعفر من رفض أمره جعل حقا على أبى حنيفة أن يصرعلى الإباء.

فالدولة التى لا تأذن بأن (يخضع السلاح للوشاح) كما يقول المثل اللاتينى، ويضرب فيما القضاه، هما أحرى الوشاح وهم العلماء ورجال القضاء «وإن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده» ، كما قال عليه الصلاة والسلام.

رفض أبو حنيفة القضاء بين يدى أبى جعفر وبين يدى ابن هبيرة وضرب بالسياط وكانت أمه إلى جوارة تقول له:

- يا نعمان إن علما ما أفادك غير الضرب والحبس حقيق بك أن تنفر منه.

فأجابها:

- يا أماه لو أردت الدنيا لوصلت إليها، ولكن أردت أن يعلم الله أنى صنعت العلم ولم أعرض نفسى فيه للهلكة.

وأدخل السجن فلم يقبل أن يأكل من طعام الخليفة وبعث إلى ولده حمادا يقول: قد علمت أن قوتى فى الشهر درهمان من سويق (الناعم من الحنطة أو الشعير) وقد حبسته عنى فعجله. . ومكث فى السجن أياماً معدودات ثم صعدت روحه إلى بارئها.

هكذا تعدى أبو جعفر الإلحاح إلى الإكراه، وتعدى الإكراه النفسى باليمين إلى الإكراه الجسدى بالسجن، وتعدى ذلك كله إلى التعذيب والضرب فأى جناية تلك

يستحق بها عذاب الله وحساب التاريخ . . ومهما قيل عن نبالة الغاية فإنها لا ترخص عنه الوصمة والمذمة .

فإذا كان الضرب أو السجن أو الألم النفسى والجسدى قد سبب موت الشيخ وهو فى السبعين فيا هول ما يلقى به ربه أبو جعفر .

لقد مات الإمام الأعظم بعد تعذيبه وظل اسمه بما قدم للفكر الإسلامى خالداً، وسيظل إلى يوم الدين بما قدم من اجتهاد أفاد المسلمين منه فى كل العصور . . وطوت صفحات النسيان أبا جعفر سيظل فقهه نور هداية لكل من يريد أن يعرف أمور دينه على وعى وبصيرة . . وسيظل الناس يرددون كلمته الخالدة : كن من السلطان كما أنت من النار ، تنتفع منها ، وتتباعد عنها ، ولا تدن منها فإنك تحترق !!

كلمات عظيمة لإمام عظيم فهم أمور الدنيا كما فهم أمور الدين ومضى الرجل إلى رحاب ربه ، وبقيت قصة حياته وفقهه ، وساماً على هام السنين .